النضال ما لا يناسبهم ولا يتفق مع الميادين التي يصولون فيها . . . والشاعر كما هو معروف ليس مقطوع الصلة بالمجتمع . وإنما هو ابن بيئته ومجتمعه ، والشاعر العربي على وجه الخصوص لا يعيش في برج عاجي ، وإنما يحيا بشعره مع الجماعة التي يأخذ منها بقدر ما يعطيها ، حتى تتجاوب معه بقدر ما يتجاوب معها ، وإذا كان شعره صدى للحياة التي يحياها ، فلا حياة إلا في نطاق الجماعة أو المجتمع الذي يعيش فيه ، ومن هنا نكلف الشاعر عسراً حين نطالبه بأن يفرض على هذه الجماعة شيئاً لا تقبله طبيعتها ولا يتقبله ذوقها الأدبي ولا تحب أن تستمع إليه ، بل لا تعرف سبيلا إلى استساغته ، وإنما تنفر منه وتزور عنه ، وهي التي عرفت سبيلها إلى الفن الذي يرضى فيها الفكر والشعور والإحساس ، والذي تسير به الركبان حيثما سارت . . . وتلهج به الألسنة في كل عصر ، تجد فيه تصويراً لها في كل أحوالها ومتنفساً لها مثل أحلامها ، فلماذا — والأمر على هذا النحو — ننتظر منها أن تنقلب على طبيعتها ، وتتلون تلون الحرباء في كل أرض ، أو كل عصر ، ولماذا نقتل فيها الشخصية ونحطم فيها الكيان ، فنطالبها أن ترفل في الأزياء التي تبدو بها هزيلة أو تتشكل في الرسوم التي تبرز من خلالها لتكون غريبة عن المجتمع من حيث ينبغي أن تكون صورة الحياة على نحو ما يعرفه ذلك المجتمع من ألوان الحياة ويتذوقه من ضروب الفن .

ليس من العدل إذن أن نطالب الشاعر العربي بأن يقتطع نفسه من مجتمعه، لأن الشاعر الفرنسي في هذا القرن أو ذاك قد نظم شعره على هذا النحو أو غيره ، ولا يخفى أنه قد لبى بذلك حاجة من حاجات المجتمع الذي يتوجه إليه بأدبه ، وبهذا الجديد الذي أتى به ، أو بالتجديد الذي خطا فيه على أنقاض القديم ، ومن هنا يكون الشاعر الفرنسي منطقياً مع نفسه ومع مجتمعه وتراثه ، بل مع ما تقتضيه طبائع الأشياء . وإذا طبقنا هذا الأصل نفسه على ما نراه عند الشاعر العربي لم نجد في الأمر أيضاً ما يخالف طبيعة الأمور ، فقد خاطب الشاعر العربي الجماعة بما كان يمكن أن تتجاوب معه ، ويشبع به نزعاته ويغذي به ميولها . خاطب الشاعر العربي الجماعة بما لا يمكن أن تستمع إلى غيره .